الملمح البيكاريسكي في رواية ' المرأة والوردة ‘لمحمّد زفزاف

A The Bikarsky feature in the novel 'The Woman and the Rose' by Mohamed Zafzaf

نضيرة لعمالي*

تاريخ الإرسال: 2022/07/25	تاريخ القبول: 2022/10/12	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

تعود جذور الأدب البيكاريسكي كجنس أدبي إلى إسبانيا، وهو يصوّر لنا حياة البيكار والشّاطر الّذي يعيش حياة غير مستقرّة من خلال تسكّعه، ورفضه لقيم المجتمع الزّائفة، و لا يُعنى إلّا بما يسدّ رمقه و غرائزه.

وتتلخّص تيمات الرّواية البيكاريسكيّة في طابعها السّير ذاتي، ونقل مغامراتالبطل، بتصوير تشرّده ومعاناته، والانغماس في مجونه من خلال جرؤته بأسلوب ساخر، وبتوظيف الملفوظ الشّعبي. والمغرب الأقصى ثرّ بهذا النّوع الأدبي بشكل لافت، لتبرزت أسماء روائيّة شطّاريّة كثيرة على غرار الأديب محمّد زفزاف،

الكلمات المفتاحية: البيكاريسك، الرواية الشطارية، السيرة الذاتية، الصعلكة، المغامرة.

Abstract:

Picarisque literature as a genre has its roots in Spain, and it depicts the picaresque life and a merciful who lives through his loitering, rejecting the false values of society, and is only concerned with what satisfies his soul and his instincts.

The picaresque themes of the novel are summarized in its autobiographical character, conveying the hero's adventures, by depicting his homelessness, suffering and immersing himself in his madness through his daring in a sarcastic manner, by popular vocalizations.

*جامعة البليدة 02 lammali.nadhera@gmail.com

The Far Maghreb has enriched this literary genre, so that the names of many poetic novelists have emerged, like Mohamed Zafzaf.

Key words:*The picaresque, the savage novel, the biography, the thug, the adventure.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: نضيرة لعمالي lammali.nadhera@gmail.com

مقدمة:

لطالما أمتعتنا أحداث الرّواية الشّطّاريّة بسير العيّارين والمتشرّدين ومخاطراتهم المشوّقة من احتيال وصعلكة وكسل وبطالة وحبّ وجنس، ومن خلال نقدهم اللّاذع لواقعهم بفلسفتهم العبثيّة السّاخرة من أعراف مجتمع مزيّف تحكمه الطّبقيّة والفاقة والجور والعادات والتّقاليد الوروثة.

ومصطلح ' البيكاريسك ' تعود نسبته إلى البيكارو، ولكن هناك من فضّل تسمية ' الشّطّار ' كعنيمي هلال و ' الرّواية الاحتياليّة ' كعلي الرّاعي، أمّا محمّد طرشونة فقد اختار ' أدب الكدية ' كمصطلح مناسب له، و نحن بدورنا نفضّل ' الشّطّار ' ككلمة عربيّة دالّة عليها في معجمها .

والشّاطر من شطر و " شطر عن أهله شطورا و شطورة و شطارة، إذا نزح عنهم وتركهم مرغما أو مخالفا و أعياهم خبثا " [1]، وهو المنحرف "قال أبو إسحاق: قول النّاس فلان شاطر، معناه أنّه أخذ في نحو غير الاستواء" [2] وقد سمّي بالشّاطر نظرا لطابع المرح و الفكاهة في اللّفظة " شطر أيضا من باب الظّرف " [3].

ولهذه الفئة من النّاس تسميّات عديدة فهم "العيّارون والزّعّار واللّصوص والّعاع والسّفلة والسّوقة، وكلّ هذه التّسميات تعبّر عن جماعة المتمرّدين على الوضع " كما

عرفوا بالصّعاليك الفقراء في تراثنا العربي القديم على أنّ الفتيان " [4] هم أولاد الأغنياء من الشّباب كامرئ القيس وطرفة، ويقابلهم أولاد الفقراء ويسمّون الصّعاليك " .[5]

وقد نشأ الأدب الشّطّاري في إسبانيا في القرن السّادس عشر لسرد حياة البيكارو بانتقال الرّواية من مثاليّة حياة الرّعاة والبطولة (دون كيشوت) إلى واقع الحياة السّاخرة، ومن ثمّة ازدهرت في الآداب الأخرى دون أن نغفل الأثر الكبير للمقامة في الأدب الأندلسي أين وجدت قصص قد احتذت بها ' وقد أثّر نموذج بطل الحريري في الأدب العربي الأندلسي، ثمّ الأدب الإسباني بعامّة، ثمّ تعاون هذا التّأثير كلّه في خلق قصص الشّطّار الّذي تعدّ قصّة حياة "لاثاريوديتورمس" نموذجا له " [6] وإن نفى عبد المنعم محمّد جاسم ذلك معلّلا " فإن سلّمنا جدلا بأنّ بطل المقامات يقوم في كلّ مقامة منفردة برحلة تورّطه في شتى الملابسات مع أناس من مختلف الأوساط والطّبقات الاجتماعيّة، فيجب أن لا ننسى أنّ هذا التّراث القصصي الّذي يمثّل البطل المتجوّل الّذي يبدو واضحا في زوايةالبيكاريسك الإسبانيّة، هو في الواقع سابق لظهور هذه الرّواية، وسابق لانتقال أدب المقامات من الشّرق الغربي إلى الأندلس الإسلاميّة " .[7]

أمّا إذا قارنّا بين حياة لاثاريو دي تورمسو المقامة لوجدنا أنّ الطّابع السّير ذاتي غالب على الرّواية الشّطّاريّة عكس المقامة الّتي تنتقل أحداثا يقوم بها البطل والّتي تكون من نسج خيال مبدعها كما نجد في أسلوب الرّواية الشّطّاريّة تهكّما على الواقع و تمرّدا أمّا المقامة فالاهتمام بالشّكل فيها أمر أساسيّ مع بروز عنصر الإباحيّة في الرّواية الشّطّاريّة و هو ما لا نجده في المقامة.

وإن تطرّقنا إلى جنس الأدب الشّطّاري بين الرّواية والسّيرة الذّاتيّة فالحديث عن ذلك يحتاج إلى تفصيل دقيق و هي دراسة ليست محلّ بحثنا، لكنّنا نشير إلى أنّه لا مفرّ للسّيرة من الرّواية، بل هذه الأخيرة هي الدّاعم لها، وعلى الغالب نجد أنّ السّيرة

تفتقد إلى حدّ كبير للصّراحة المطلقة، ولكي تكون شكلا أدبيّا قائما بذاته وجب أن "يكشف عن حياة المؤلّف الحقيقيّة من دون الأقنعة الواقية لاستعمال ذاكرة الخيال كما في القصّة والرّواية " [8]، الأمر الّذي لاحظناه في الجزء الأوّل من ثلاثيّة محمّد شكري أين قام بتعرية حياته تعرية مطلقة مقارنة بالجزأين الأخيرين ' زمن الأخطاء – الشّطّار – 'و ' وجوه '. وعليه، الأدب الشّطّاري سيرة روائيّة لتمازج الحقيقة بالخيال و لتصرّف صاحبها فيها.

وقد بزرت الرّواية المغربيّة في هذا الجنس الأدبي ' الرّواية الشّطّاريّة ' نظرا لاحتكاكها بالأدب الإسباني و غزارة المادّة فيها مثل ثلاثيّة محمّد شكري ' الخبز الحافي ' و ' زمن الأخطاء – الشّطّار- ' و ' وجوه ' و الرّوائي العربي باطما في ' الرّحيل ' و ' الألم ' وكذا محمّد الهرادي في ' أحلام بقرة ' و أيضا ' محمّد زفزاف في ' المرأة و الوردة '، هذا الرّوائي الّذي اخترناه لنحدّد آليّات الأداء الشّطّاري في مؤلّفه، ونقصد بذلك المنحى السّير ذاتي، الفقر والمعاناة، الارتحال، الصّعلكة والتّشرّد، الإباحيّة، التّمرّد على الواقع وفلسفة العبث، السّخرية والباروديا، والملفوظ الشّعبي .

1. المنحى السّير ذاتي:

نقلت لنا الرّواية الشّطّاريّة سيرة صاحبها، فكان الشّاطر يسرد وقائع حياته دون قيد، فكان جريئا متمرّدا لا يخش لومة لائم، وكان البطل يكتشف ذاته و وجوده في مجتمعه " في مرحلة اختلطت فيها المفاهيم الرّومانسيّة بالمفاهيم الوطنيّة، وأحسن من خلالها المتعلّمون والمثقّفون بأهمّيّتهم فراحوا يستكشفون ذواتهم، ويعكفون على تغيير أناهم المتضخّمة وعلى تحديد العلاقة بينهم وبين مجتمعهم المتحرّك في اتّجاه واحد " [9] باعتبار الماضي مرجعا لإلهامه وهو الأمر الّذي أكّده محمّد أمنصور "قد شكّلت الذّات الفرديّة للكاتب مادّة الحكي ومرجع الكتابة الأساس، بحيث اقترنت ولادة

الرّواية بلحظة وعي حادّ بالأنا، وإنّها استعادة للتّاريخ الشّخصي للمثقّف المغربي عبر السّرد " [10].

عرّف زفزاف نفسه ساخرا:

" من مواليد 1930، الاسم محمّد، الأب فلان بن حسن أو حسين لا أذكر، الأمّ فلانة محمّد أو محمود لا أذكر مكان الازدياد عرباوة، هل هذا فيه كفاية؟ " [11].

وقد ذكر اسمه في مواضع كثيرة:

" محمّد، قم، لا تنم، هذا ليس وقت النّوم " [12].

كما نستطيع تصوّر ملامح زفزاف الخارجيّة حين عاتبته صاحبة الفندق على مرافقته لجورج وآلان :

" قل لي يا وليدي، لماذا تفعل مثلهم وتُطلق شعرك أنت أيضا؟ " .[13]

ومن خلال حديث جوزج حينما تعرّف عليه:

" أنا أيضا لا أفعل شيئا، الأفضل أن تبقى معنا، شكلك مريح على الأقلّ "[14].

وفي وصفه لنفسه مخاطبا حبيبته:

" ضعيف البنية، قليل الجرأة، فلا يمكنني أن أصير أسدا، سأصير روحا وروحا لك" [15] .

ويقول عن خصلاته البيضاء وهو معجبيبته:

" رفعت يدها، وأخذت تبحث عن بعض الشّعيرات البيضاء في رأسي وهي تضحك، قالت وهي تلتف إلى جورج: إنّه عجوز، لكنّه لم يفهم شيئا "[16].

وقد كان والدا زفزاف مسلمين متعصّبين في حين جهر هو بإلحاده:

" أنا أيضا ملحد، لم أر في حياتي ما بداخل المسجد، أبي وأمّي كذلك، رغم أنّهما متعصّبان، وإذا سمعني مسلم الآن يقتلني " [17].

كان زفزاف يتقن اللّغة الفرنسيّة:

" ظللت أتفرّج وأبحث لعلّي أعثر على عنوان بالفرنسيّة " [18].

أمّا اللّغة الإسبانيّة فقد كان فهمه يسيرا لها:

" فمعلوماتي في الانجليزيّة لا تسمح بذلك فقط أميّز بعض كلمات " [19].

خاطب جورج امرأة انجليزيّة بالفرنسيّة لكنّها لم تفهمه، فقال زفزاف:

" –هل تتكلّم الانجليزيّة؟

- قليلا.

- ترجم لنا. " [20]

2.الفقر والمعاناة:

عانى الشّاطر من الفاقة، فسلك طريق التّسوّل و السرقة لعلّه يجدّ من خلالهما ما يسدّ رمقه، الأمر الّذي يسترجعه زفزاف حين نقل لنا معاناته مع العوز:

" في سنوات معيّنة – سنوات منطبعة بحدّ السّكّين في ذاكرتي وقلبي – كنّا نعاني من الجوع الشّديد والفقر (..) كان أبي يعود بأيّ شيء يستطيع أن يملأ البطن حتّى ولو كان براز بعض الحيوانات، وكان من العسير والصّعب العثور على الخبز، لم أكن أعرف شكل الخبز الحقيقي الّذي أصبحت فيما بعد لا أعبأ به وهو أمامي في مطاعم فخمة أو عاديّة كنّا نأكل أيّ شيء " [21].

كان زفزاف يحبّ الكتب إلّا أنّه لم يكن ليملك فلسا لاقتنائها:

" ظللت أتفرّج وأبحث لعلّي أعثر على عنوان بالفرنسيّة، وحتّى لوكان هناك فإنّي لا أستطيع اقتناء كتاب، ليس معي نقود و لا وقت للقراءة " [22].

وهو يشعر بفقره بمجرّد تذكّره ماضيه البائس:

" حرّكت قدمي وتذكّرت كلّ ماضي السيّء الّذي عشته واحدا مثل الملايين في قرى قذرة منتشرة في جبال الأطلس أو جبال الرّيف أو سهول الشّاوية أو صحراء طنطان المترامية، و تذكّرت صوت آلامي الكثيرة الّتي قصمت ظهري الضّعيف " [23].

يقول أيضا متحسّرا:

" كان بي جوع كثير: جوع كثير له آلام، ولم تكن نقودي القليلة تسمح لي أن أتناول طعامي في مطعم أو وسط طوري ".[24]

طلبت منه أخته – بعد عودته من غربته – البحث عن عمل:

" – بصراحة يجب أن تبحث عن عمل ... إنّ أمّك عجوز ولا تستطيع أن تعيلك.. أبونا مات فيجب أن نفهم دورنا في الحياة.. كيف أنّ كلّ الكتب الّتي قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامك؟ " [25].

ولم يكن زفزاف يجيد أيّ عمل، كانت سوزي حبيبته مصدر رزقه، وكان يطمح أن يصبح غنيّا بكتاباته، قال وهو يحاور أخته الّتي نصحته أن يبحث عن عمل:

" أنا: انتظري حتّى تتغيّر الأحوال، ربّما صرت كاتبا مشهورا وأصبحت غنيّا" .[26]

بالإضافة إلى عوز زفزاف وجوعه، كان يعيش هاجسا لطالما أخافه وهو تهديد والده له ولأخته بالقتل:

" أغلقت فمها ولم نعد إلى البيت إلّا بعد أربعة أيّام لأنّ أبي منعنا من ذلك وهدّدنا بالقتل " .[27]

ونشير إلى أن زفزاف قد اتّهم بقتل والده، خاطب القاضي في جلسة:

"ما هي الأسباب الرّئيسيّة الّتي جعلتني أصير مهرّبا وحتّى قاتلا وبين قوسين أنا لم أقتل، لكن سبق وأن اتّهمت بقتل أبي " .[28]

3.الارتحال:

نظرا للحياة المزرية والواقع المرّ، آثر الشّاطر الارتحال إلى أماكن أخرى عسى أن يجد فيها الخبز السّهل والاستقرار الدّائم.

وقد ارتحل بطلنا إلى إسبانيا مهرّبا:

" وقال جورج عندما سألته عن موعد النتقال إلى إسبانيا وقد وجدنا البائع:

ليس الوقت وقته، لنتمهّل قليلا فالحراسة مشددة خلا هذين الأسبوعين من تطوان إلى سبتة " [29].

4.الصّعلكة والتّشرد:

عاش الشّاطر محروما من العائلة، منبوذا من المجتمع، مشرّدا في الشّوارع، فلم يجد أمامه إلّا سبيل اللّصوصيّة لإشباع بطنه، فقد كان جوعه وحشا أجبر على مصارعته لسدّ رمقه، وصعلكته كأسا تُذهب عقله لتنسيه.

وسبب سرقة زفزاف هو الجوع الّذي حال دون تحقيق أحلامه:

" كانت نقودي قليلة الّتي أحصل عليها بهذه الطّريقة أو تلك قد نفدت وكنت أحتار ماذا أفعل؟ أين حلم بناء بار في أمريكا اللّاتينيّة؟ أين عدن عدن عدن .. يا إلهي أين عدن؟ عدن الحقيقة أو عدن الزّائفة؟ أين هي أحلامي؟ كيف أشبع جوعي؟ [30].

ومن أسباب صعلكته أيضا أن يصبح غنيّا، هذا ما تعلّمه من صديقه جورج:

" قال جورج: "ليس بمفهومه في مخيّلتك العمل هو الذّكاء والاحتيال السّريع والبطش في رمشة عين تصبح غنيّا " [31].

إلّا أنّ زفزاف كان يرفض سرقة الطّيّبين، قال في أجنبيّة لمّا أراد زفيقهجوزج سرقتها:

" -لم لا تسرقها؟

-قلت: لا أوافق.. إنّها طيّبة ولا تستحقّ ذلك (..) هيه أتعتقد أنّي أبله؟ الفتاة لطيفة ولا تستحقّ ذلك " [32].

و لتحقيق احلامه، احترف التّهريب مع رفيقه جورج و آلان:

" قال جوزج:

لا يهمّك شيء، أنت ستبحث عن البائع وأنا وآلان نقوم بالباقي، لا تفكّر في اجتياز الحدود هذا أمر أوكله إليّ.

فقلت: موافق ولا مانعندي، أعرف الكثيرين في طنجة وإذا لم ترد ذلك فسنقوم بالمهمّة عن طريق تطوان وسبتة ".[33]

5.الإباحيّة:

غالى أغلب الشّطّار في انحرافهم، فكانوا عبيدا لغرائزهم، مسيّرين بشهواتهم، فقُيّدوا بأصفاد أجساد النّساء، وغرقوا في متاهة السّكر، ولذلك – في نظرهم – أسباب ودوافع قاهرة حالت دون أن يتحرّروا من بوتقة مجونهم يقول زفزاف عند عتبة فندق الشّاون:

" وعبثا حاولن أن أضرب الباب الخشبيّ بيدي المتعبتين من فعل الشّراب الكثير، لم تكن عادتي أن أشرب حتّى أغرق، و لكن كلّ شيء نتعوّد عليه، وهكذا فقد تعوّدت على

الغرق في نهاية الكأس وفي نهاية الجنس، كنت أغرق وأحاول أن أنقذ نفسي من جديد و أعاود الكرّة بطريقة سيزيفيّة عابثة لكن دون جدوى " [34].

ويعترف بميولاته المنحرفة:

" وفكّرت أن أنزع ثيابي قبل أن أبلغ الشّاطىء، كان المايوه تحت البنطلون، لكنّي فكّرت: ' عيب .. عيب جدّا ' لم يفكّر النّاس في هذا العيب الّذي فكّرت فيه (..) لا أحد يفكّر في العيب، غير أنّه كان موجودا عندي، تخيّلته فقط وعانيت منه " [35].

ورغم إباحيّته إلّا أنّه كان – في بداية الأمر – يرفض العناق في الشّارع:

" أحيانا ينظر في أعيننا فتضمّني إليها بقوّة.. دون أن أستطيع أن أفعل الشّيء نفسه، لست أدري لماذا هناك عطب داخلي ليمنعني من ذلك ثمّ فوق كلّ شيء ليست لديّ رغبة ".[36]

وقد كان ذاك الشّعور يشكّل له عائقا:

" واه يا إلهي متى كانت لديّ الرّغبة في أيّ شيء؟ هنا سرّ العطب، لا أرغب في شيء، أعيش فقط وأخطّط كلّ شيء بلا مبالاة " .[37]

وبعد تردّده، استسلم زفزاف لهواه، يقول وهو يتفرّج على شبان يعزفون:

" مازالت سوزي واقفة، .... فيهما تنمّل لذيذ " [38].

واسترسل في وصفه الخليع وهو معجبيته:

" وتبادلنا بعض العواطف الصّادقة الّتي لا شكّ فيها " [39].

" كنت اهوى جمالها" .[40]

"عجزت عن الكلام امام عينيها" [41].

ويعتبر بطلنا نفسه محظوظا لكثرة النّساء اللّواتي عرفهنّ في حياته، يقول أثناء محاكمته الخياليّة:

" – كم عدد النّساء في حياتك؟

- كثير، ومن كلّ الجنسيّات، ولمعلوماتكم يجب ان تعرفوا أنّني محظوظ، ولو بقيت طالبا في الجامعة لما عرفت واحدة " [42].

يقول حين يتذكّر مغامراته مع حبيبته:

" جلست سوز أمامي ...، ولم أعد أسمع الضّوضاء " [43].

6. التّمرّد على الواقع وفلسفة العبث:

كان الشّاطر متمرّدا على الدّين والعادات والتّقاليد، رافضا واقعه الّذي كان يراه زائفا، فتحدّث عن الفقر، التّسوّل، الصّعلكة، الإجرام، الظّلم، الأوضاع السّياسيّة غير المستقرّة، والاقتصاديّة المزرية.. متأمّلا في المسائل الوجوديّة من القدر والموت ويوم البعث والألوهيّة..، هذا الصّراع قد عاشه زفزاف مصرّحا:

" أحيانا أشعر بأنّ القهوة تضايقني وتشدّ أعصابي شدّا، فأشرف على الانفجار، الانفجار ضدّ نفسي، وضدّ كلّ شيء " .[44]

يتحدّث زفزاف عن الجيب والكرامة ساخرا، وفي سخريّته مرارة خفيّة:

" الجيب هو الّذي يقرّر مصيري، وإذا لم أبالغ، فالجيب هو الّذي يعطي معنى لحياة الإنسان و أكثر من ذلك، فالجيب هو الكرامة و هو الاحترام "[45].

وكان منظوره للاحترام على غرار الكرامة، قال حين وصف عجوزا ترقص مغرية الزّبائن بسوارها الذّهبي و هم يسكرون:

" الثّمن بخس، لا يكلّفها ذلك شيئا، بيرهة، بيرتان، و يأتي الاحترام دليلا يجرجر نفسه كالكلب ".[46]

وفي نفس السّياق يتساءل زفزاف:

" هل أنا عجوز؟ هل أنا معطوب حتّى أخفي إحدى عاهاتي عن النّاس؟ لا، لم أكن معطوبا جسديّا بل نفسيّا، أتخيّل جسمي نحيفا ضئيلا جائعا لكنّه على الكس، كان موضة الصّيف، النّحافة كانت هي الموضة مع لك لم أعط لنفسي الجرأة حتّى أنزل إلى الشّاطىء مثلما يفعل هؤلاء النّاس القادمون من أطراف الدّنيا " [47].

أمّا الحريّة فلم يشعر بها إلّا في بلد آخر غير بلده:

" مشينا دون أن نتكلّم، شعرت أنّ الرّمل تحت قدمي لا يشبه زمل شواطىء الوطن، حتّى الهواء كان غريبا إلى حدّ الجنون، حتّى حركات انخفاض وصعود الرّئتين في القفص الصّدري تغيّرت، صارت ذات نسق آخر حيّ، في السّابق كان كلّ شيء زتيبا، كنت أشمّ الهواء وأشعر بقيود حديديّة تكبّلني الآن، و رغم الخوف الهائل الّذي يختفي وراء أحلامي شعرت بالوحدة " [48].

وما لاحظناه أنّ زفزاف قد عقد مقارنة بين الأنا والآخر، فوجد في الأولى تخلّفا إلّا أنّه لم يحكم على الثّانية بالمثاليّة على غرار الرّوائي ابن جلّون في روايته 'في الطّفولة' أين كان منبهرا بالغرب، أمّا الرّوائي عبد اللّه العروي فقد كان متخوّفا من الآخر في روايته ' أوراق ' على أنّه محتلّ الأمس و محمّد برادة في " صيف حارّ" أين ربط الهويّة الوطنيّة بالقوميّة، وعليه كان الرّوائيّون يعيشون صراعا بين الأنا والآخر، ذاك الصّراع الّذي علّق عليه عبد الكريم غلّاب متسائلا " متى الرّشد ؟ متى نصبح نحن كتّاب الرّواية العرب مبدعين ذاتيّين نعطي شيئا جديدا متأثّرين بأنفسنا، بعبقريّتنا، بتجربتنا، لا صدى لغيرنا ؟ " [49].

أصبح الماضي والعزلة والدّين ملاذ الرّوائي المغربي الوحيد هروبا من الواقع السّياسي والاجتماعي " وتعويضا عن العجز والمواجهة والتّأثّر، لجأت الذّات الجريحة للهروب إلى الماضي، إلى هويّتها الذّاتيّة الأصليّة، إلى الرّجولة في بقائها المتوهّم، وعلى المستوى السّياسي العربي حدث التّشذرم هروبا من الوحدة، وعلى المستوى الاجتماعي اسيقظت الطّائفيّة بديلا عن القوميّة، وعلى مستوى الانتماء، حلّ الدّين محلّ الوطن"[50].

وقد انتقد زفزاف واقعه السّياسي أيضا من خلال ترويج المخدّرات إلى إسبانيا، قال في محاكمة من نسج خياله:

" الضّابط (يسعل) يا سعادة الرّئيس، هذا مجرم خطير، ووجدنا في حوزته عدّة كيلوغرامات من خلاصة الكيف، كان ينوي بيعها في بلادنا لتخدير النّاس، لجعلهم يغيبون عن وعيهم هنا في إسبانيا " [51].

وأشار إلى كبت حرّيّات التّعبير على لسان الضّابط مع القاضي:

" الضّابط: - عفوا يا سيادة الرّئيس، نسيت أنّي أتكلّم في أمر خطير (بصوت منخفض) بيني وبينك اشتقنا مدّة ثلاثين عاما للحديث في أمور مثل هذه، ألا تجد أنّ الحديث في أمور مثل هذه شيء رائع ومسلّ؟ "[52].

ويرى زفزاف أنّه على الشّعب تحمّل الذّلّ لأنّه يجب أن يكون مستبدّا ملتزما:

" نحن شعب لا يحبّ الأزهار، يحبّ السّياط ويحبّ اللّه " [53].

كما انتقد زفزاف واقعه الاجتماعي بفضح ما يحدث في الجامعات:

" –في الجامعة، الأساتذة مكبوتون" .[54]

ويضيف ليؤكّد كلامه:

" لا تصدّقوا، لذلك تجدون أنّ كلّ الطّلبة يتهافتون على الدّكتوراه حتّى يصبحوا أساتذة في الجامعة، ليس حبّا في العلم، لكن حبّا في الفتيات " .[55]

7 .السّخرية والبارودیا:

وصف زفزاف الأخلاق ساخرا:

" الأخلاق الخاصّة المتخيّلة موجودة فقط في الكتب مثل ' الشّريف هو شريف النّفس ' و 'الحكيم هومن تجاوز ترّهاتالدّنيا'، هذه الكلمات تصلح لأن تعلّق هنا في متاحف يتفرّج عليها النّاس إذا كان لديهم قليل من الوقت، وعليه، عندما فتّشت في جيبي لم أجد أنّه يستطيع أن يعطيني كرامة أكثر، كرامتي إذن محدودة لا أستطيع أن أتحرّك إذا لم تتحرّك يدي في جيبي " .[56]

و في وصفه لصديقه آلان :

" وعندما يستدعينا لنأكل ونشرب، تكون امتلأت جيوبه بقدرة قادر" [57].

8. الملفوظ الشّعبي:

كان زفزاف يوظّف لغة العامّة في روايته:

حاور رفقاءه أثناء متاجرته بالمخدّرات:

" –كيفاش السّلعة؟

-قلت بنشوة: جيّدة مزيانة آه مزيانة .

-نعم جيّدة " .[58]

كما وظّف أيضا اللّغة الانجليزيّة:

" أوه رائع فيري نايس " .[59]

وحين استيقظ صباحا، سمع ضوضاء في غرفة سوز:

" رأيت وجوها ثلاثة قالت كلّها بصوت واحد: جود مورنينغ " [60].

وانطلاقا ممّاسبق، نجد أنّذ رواية ' المرأة و الوردة " هي شطّاريّة بامتياز إذ كشف من خلالها زفزاف هوّيّته مبديا كرهه لوالده ذاكرا اسمه في عدّة مواضع، مبدعا في وصف معاناته من الفقر و الجوع، و لتأثّره بالمدنيّة الجديدة ارتحل إلى إسبانيا، وقد برزت صعلكته في احترافه لتجارة المخدّرات، وقد كان جريئا مبيّنا موقفه من المثليّة الّتي يمقتها، كما تمرّد على واقعه المزيّف بعاداته وتقاليده مع استخدامه للملفوظ الشّعبي واللّغة الانجليزيّة في سرده.

9. الخاتمة:

وفي الأخير، ومن خلال دراستنا التّحليليّة لرواية ' المرأة والوردة ' لمحمّد زفزاف المغربيّ، وجدناها رواية بيكاريسكيّة بامتياز، إذ تضمّنت ملامح الأدب الشّطّاري بآليّاته المضمونيّة والفنيّة، فقد نقلت لنا على لسان محمّد زفزاف البطل مغامراته الشّطّاريّة بشكل سيريّ أوطوبيوغرافيّ، منتقدا تقاليد المجتمع وأعرافه الزّائفة، ومعتقداته الّتي سادتها الشّعوذة و الخرافة، بأسلوب تهكّميّ، وملفوظ شعبيّ، مصوّرا حال الفقراء والمشرّدين والمنبوذين الّذين سلبهم واقعهم المرّ أدنى حقوقهم ظلما.

*** *** ***

10. الهوامش:

[1] ابن منظور لسان العرب المجلّد الرّابع دار صادر بيروت فصل شطر باب الرّاء.

[2] المصدر نفسه، الفصل نفسه.

[3] محمّد بن أبي بكر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995، ص 142.

[4] عبد العزيز الدّوري، مقدّمة في التّاريخ الاقتصادي العربي، الطّبعة الخامسة دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1987، ص 53.

[5] أحمدأمين، الصّعلكة والفتوّة في الإسلام، كلمات عربيّة للتّرجمة و النّشر، 1987، ص12.

[6] محمّد غنيمي هلّال، الموقف الأدبي دار الثّقافة دار العودة، بيروت، 1977، ص 47.

[7] عبد المنعم محمّد جاسم، ألف ليلة وليلة في الآداب الأوروبيّة، التّراث الشّعبي العدد 3/4 السّنة 10، 1979، ص 20.

[8] دانيال مندليسون وآخرون، نهاية الرّواية وبداية السّيرة الذّاتيّة وقضايا أخرى مترجمة، ترجمة وتحقيق محمّد العيسي تقديم صلاح عيسى، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 2011، ص 59.

[9] محمّد برادة، الأسس النّظريّة للرّواية المغربيّة المكتوبة بالعربيّة ضمن كتّاب الرّواية المغربيّة، المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1، عدد2، الرّباط، 1971، ص 142.

[10] محمّد أمنصور، استراتيجيّات التّجريب في الرّواية المغربيّة المعاصرة شركة النّشر والتّوزيع المدارس، ط1، الدّار البيضاء المغرب، 2006، ص 24.

[11] محمّد زفزاف المرأة و الوردة، مكتبة الأدب المغربي المركز الثّقافي العربي، 2007، ص 118.

[12] المصدر نفسه، ص 64.

[13] المصدر نفسه، ص 138.

[14] المصدر نفسه، ص 47.

[15] المصدر نفسه، ص 77.

[16] المصدر نفسه، ص 49.

[17] المصدر نفسه، ص 33.

[18] المصدر نفسه، ص 48.

[19] المصدر نفسه، ص 30.

[20] المصدر نفسه، ص 49.

[21] المصدر نفسه، ص 42.

[22] المصدر نفسه، ص 48.

[23] المصدر نفسه، ص 75.

[24] المصدر نفسه، ص 89 .

[25] المصدر نفسه، ص 101.

[26] المصدر نفسه، ص 140.

[27] المصدر نفسه، ص 43.

[28] المصدر نفسه، ص 117.

[29] المصدر نفسه، ص 123.

[30] المصدر نفسه، ص 139.

[31] المصدر نفسه، ص 103.

[32] المصدر نفسه، ص 50.

[33] المصدر نفسه، ص 99.

[34] المصدر نفسه، ص 123.

[35] المصدر نفسه، ص 17 و18.

[36] المصدر نفسه، ص 25.

[37] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[38] المصدر نفسه، ص 27.

[39] المصدر نفسه، ص 58.

[40] المصدر نفسه، ص 66.

[41] المصدر نفسه، ص 82.

[42] المصدر نفسه، ص 118 و119.

[43] المصدر نفسه، ص 33.

[44] المصدر نفسه، ص 15.

[45] المصدر نفسه، ص 126

[46] المصدر نفسه، ص 22

[47] المصدر نفسه، ص 16.

[48] المصدر نفسه، ص 81.

[49] عبد الكريم غلّاب، الرّواية حياة متكاملة، مجلّة آفاق عدد 3/4، سنة 1984، ص 106.

[50] نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة مركز الثّقافة العربي الدّار البيضاء بيروت، ط1، 2000، ص 38.

[51] محمّد زفزاف المرأة والوردة، ص 114.

[52] المصدر نفسه، ص 115.

[53] المصدر نفسه، ص 77.

[54] المصدر نفسه، ص 119.

[55] المصدر نفسه، ص 119.

[56] المصدر نفسه، ص 22.

[57] المصدر نفسه، ص 53.

[58] المصدر نفسه، ص 105.

[59] المصدر نفسه، ص 27.

[60] المصدر نفسه، ص 45.

11. المصادر والمراجع :

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلّد الرّابع، فصل شطر باب الرّاء، 2007.

2- أحمد أمين، الصّعلكة والفتوّة في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة والنّشر، جمهورية مصر العربية، 2012.

3- داني المندليسون وآخرون، نهاية الرّواية وبداية السّيرة الذّاتيّة وقضايا أخرى مترجمة، ترجمة وتحقيق محمّد العيسى تقديم صلاح عيسى، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 2011.

4-عبد العزيز الدّوري، مقدّمة في التّاريخ الاقتصادي العربي، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، الطبعة الخامسة، 1987.

5- عبد المنعم محمّدجاسم، ألف ليلة وليلة في الآداب الأوروبيّة، التّراث الشّعبي العدد 3/4، 1979.

6-محمّد أمنصور، استراتيجيّات التّجريب في الرّواية المغربيّة المعاصرة، شركة النّشر والتّوزيع المدارس، الدّار البيضاء المغرب، 2006.

7-محمّد برادة، الأسس النّظريّة للرّواية المغربيّة المكتوبة بالعربيّة ضمن كتّاب الرّواية المغربيّة، المركز الجامعي للبحث العلمي، ط1، عدد2، الرّباط، 1971.

8- محمّد بن أبي بكر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان ناشرون بيروت، 1995.

9- محمّد زفزاف، المرأة والوردة، مكتبة الأدب المغربي المركز الثّقافي العربي، المغرب.

10- محمّد غنيمي هلّال، الموقف الأدبي دار الثّقافة دار العودة، بيروت، 1977.

11- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، مركز الثّقافة العربي، الدّار البيضاء، ط1، 2000.